

## النحو العربي بين غموض النشأة ووضوح القصيدة

أ . بن دحان شريف

جامعة بشار – الجزائر –

**الملخص:** يعد النحو العربي من العلوم الجليلة التي يحق للعرب أن يفخروا بها مهما قيل عنه، لأنه العلم الذي يحفظ اللسان من الخطأ، إلا أن المصادر القديمة والحديثة لم تزل الضبابية عن نشأته، فتعددت الروايات بشأن أول واضع له وانقسمت بين الإمام علي كرم الله وجهه، وأبي الأسود، ونصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، وهذا الانقسام في ذاته دليل على غموض في النشأة، ومن جانب آخر وجدنا اختلافا فيما يتعلق بأصالة هذا العلم أو تأثره بعلم الأمم الأخرى، غير أننا لم نجد خلافا فيما يتصل بالأهداف والمقاصد التي توخاها هذا العلم.

العرب كما تذكر كتب تاريخ اللغة والأدب - أمة فصاحة وبيان، وبلاغة لسان تكلموا فأبانوا عن أغراضهم ومقاصدهم، فقد "كانوا ينطقون عن سليقة جبلوا عليها فيتكلمون في شؤونهم بدون إعمال فكر أو رعاية قانون كلامي يخضعون له قانونهم ملكتهم التي خلقت فيهم ومعلمهم بيئتهم"<sup>1</sup> وعن مكانة الشعر بين العرب وقيمته يحدثنا ابن قتيبة قائلاً: "الشعر معدن العرب وسفر حكمتها وديوان أخبارها والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام، من لم يقم عنده على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميدة بيت منه، شددت مساعيه على مرور الأيام وإن كانت جساما"<sup>2</sup>. فالشعر تمظهر واضح للبيان العربي الرصين والأسلوب الجزل القوي والمعاني السامية، الصادرة من إنسان تكلم على الفطرة والطبيعة، إنه رسالة تحمل هموم الناس وأفراحهم وهو الحجة بينهم، وبه رفعت أقوام وحطت أخرى، فهو يضاهي وسائل الإعلام اليوم، لذا كان الاعتناء به كبيراً

وبلغته أكبر، فكتب النقد تقص علينا كيف كان "زهير بن أبي سلمى" يعتني بأشعاره مدة سنة كاملة، ولا تخرج إلى الجمهور إلا بعد تمحص دقيق، مع قدرته على إخراجها وفي وقت أقل.

وظل العرب على هذا القدر العالي من الفصاحة والبيان زمنا طويلاً، يباهون به الأمم بتلك البلاغة القوية المؤثرة، حيث "أكب الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقاً، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة، وحيناً يجمع بين الدقة والعذوبة"<sup>3</sup>، ومما جعل العرب على هذه الحال - فيما يبدو - بقاء بيئتهم العربية بعيدة عن التأثير بالعنصر الأجنبي، فقد أشار ابن الأثير إلى أن اللسان العربي كان محروساً لا يتدخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل.<sup>4</sup>

ومما يعكس فصاحة الأقدمين وحرصهم على الطبع السليم عدم روايتهم الشعر الرديء، خشية الاقتداء به وشيوعه بين الناس، وعليه فنقاء الفضاء العربي وصفاءه جعلاً من العربي آنذاك، مصدراً للكلام النموذجي الذي رسم على لسان كل من شب في هذه البيئة.

**القرآن الكريم وفصاحة العرب:** وتجلت حكمة الله تعالى أن شرف العرب بنزول القرآن الكريم، وفي ذلك يقول المولى عز وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>5</sup>، ولما كان الدين الإسلامي للبشرية كافة لا تحكمه حدود ولا قيود ذاع وانتشر في كافة الأمصار، فانتسعت رقعة الدولة الإسلامية وضمت عدة حضارات، فاختلط العرب بغيرهم من العجم، وكان طبيعياً أن تتأثر لغة الفاتحين بلغات البلدان المفتوحة، فتغيرت ألسنتهم، الأمر الذي ضعف السليقة وأذن بتلاشي خيوطها، بعد أن كان العرب حصناً منيعاً أمام الاختلاط، كما تأثر أهل البلاد المفتوحة بلغة القرآن الكريم، وحاولوا مجاراتها "لكن خضوع ألسنتها وأصواتها لعاداتهم اللغوية السابقة، لم يترك لهم مجالاً لأن يكونوا ذوي عربية خالصة"<sup>6</sup> وكان من أثر هذه الفتوحات اختلاط العرب بغيرهم من الأمم وانصهارهم فيهم

أحيانا لدرجة أنه تكوّن شعب واحد، اجتمعت فيه شعوب وحدها الإسلام، وأذاب بينها فوارق الدين والجنس والوطن، ولما طال الامتزاج تسرب الضعف إلى نحيزة العربي وسليقته<sup>7</sup>، وتولد من هذا كله أن اللغة العربية تسرب إليها اللحن، ووهنت الملاحظة الدقيقة التي تمتاز بها، وهي اختلاف المعاني طوعا لاختلاف شكل آخر الكلمة، فإن هذه الميزة كانت موفورة لديهم وهم بعيدون عن مخالطة سواهم<sup>8</sup> ونتيجة لهذا الاختلاط ظهر ما يسمى اللحن، وهو كما عرّفه ابن فارس (ت 395 هـ) بقوله: "إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية، يقال لحن لحناء، وهذا عندنا من الكلام المولد، لأن اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة"<sup>9</sup>، وهكذا تفشى اللحن شيئا فشيئا، وبدأت الألسنة تبتعد عن الفطرة السليمة، وتجنح إلى الفساد وتزيغ عن الوجه السليم في الاستعمال، وجعل ذلك ينتشر بين المسلمين بعد أن اضطرب كلام العرب ومازجه شيء من المولد، ولم يكن هذا الوباء اللغوي محصورا في الكلام العادي بين الناس، بل امتدت شروره إلى القرآن الكريم، ولم يعد حكرا على الأعاجم، بل قاسمهم في ذلك أبناء العربية الذين جلبوا عليها منذ نعومة أظافرهم، ولم يسلم من هذا الشر حتى خاصة القوم وأشرفهم، حتى أصبح الذين لا يلحنون يعدون على الأصابع، وقصص اللحن كثيرة جداً لا يسعنا المقام لذكرها، وكانت هذه بداية تفكير جادة في إقامة قانون يحفظ القرآن ويقيم اللسان ويصون اللغة العربية، ويعيدها سيرتها الأولى، فوضع ما يسمى بالنحو.

**نشأة النحو:** يعد النحو القانون الكلامي الذي يضبط كل لسان زائع عن جادة الصواب، بعدما فشا الفساد في الكلام، وبدأت الحركات الإعرابية تستعمل استعمالاً تعسفياً، نجم عنه تغير في المعاني والدلالات، وقد تهيأت ظروفه بعد مجيء الإسلام ونزول القرآن وانتشاره في أنحاء الجزيرة العربية، ونشأته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقرآن، فلولاها لما نشأ هذا العلم الذي تمت له السيطرة فيما بعد على كل علم من علوم العربية<sup>10</sup>، ولذلك قد لا يكون اللحن وحده سبباً كافياً لإقامة صرح هذا

العلم وبنائه، "نعم لقد كان حفظ القرآن من اللحن سببا من الأسباب، لكنه لم يكن السبب الأول، ولم يكن الغاية من الدراسة، والسبب الحقيقي لنشأة علوم اللغة عند العرب، إنما هو السعي لفهم النص القرآني"<sup>11</sup>، وكان أول ما اختلف من كلام العرب فأخرج إلى التعلم الإعراب<sup>12</sup>، وقد عبر أبو بكر الزبيدي عن هذه الحقيقة خير تعبير فقال: "ولم تزل العرب تنطق على سجيها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا وأقبلوا إليه أرسالا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة ففشا الفساد في اللغة العربية واستبان منه في الإعراب الذي هو حليها، والموضح لمعانيها، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب... حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتنقيفها لمن زاعت عنه".<sup>13</sup>

ونجد من الباحثين المحدثين من يؤيد هذا الطرح، حتى يكاد يتبناه كليا، كما هو الحال بالنسبة للدكتور سعيد الأفغاني الذي يعتبر اللحن مدعاة لجمع اللغة واستنباط قواعدها، "فهو الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها"<sup>14</sup>، ولهذا دعت الحاجة إلى وضع القواعد التي تصون اللسان من اللحن لحفظ القرآن من آثاره الفاسدة.<sup>15</sup>

**من وضع علم النحو؟** أورد العلماء روايات مختلفة ومتعددة حول الواضع الأول لعلم النحو، وربما كان اختلاف الروايات نفسه مدعاة للقول بغموض نشأة هذا العلم، وما زاد هذه النشأة غموضا هو اضطراب هذه الروايات في بعض الأحيان، فقد ذكر الزبيدي في الطبقات أن أول مؤصل لعلم النحو "أبو الأسود ظالم بن عمر الدؤلي ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز، فوضعوا للنحو أبوابا وأصلوا له أصولا فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف، وكان لأبي الأسود في ذلك فضل سبق"<sup>16</sup> فمن كلام الزبيدي يتضح أن أبا الأسود هو من سبق الذين ذكر معهم، فكان الرائد

الذي بدأ هذا الفن وواصل أتباعه فيه، وذكر السيرافي غير واحد من الذين تتسبب إليهم نشأة النحو، إلا أنه رجح أبا الأسود في الوضع من بين مجموعة من العلماء "فقال قائلون: أبو الأسود، وقال آخرون نصر بن عاصم الدؤلي، ويقال الليثي، وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز، وأكثر الناس على أبي الأسود"<sup>17</sup>، كما ذكر ابن سلام (ت 231 هـ) أن أبا الأسود هو من وضع النحو فقال: "كان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي"<sup>18</sup>.

وقد نقل ابن النديم في الفهرست الروايات التي ساقها أبو سعيد السيرافي، إلا أنه أضاف أنه رأى ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود في أربع ورقات ضمت كلاماً في الفاعل والمفعول من أبي الأسود بخط يحيى بن يعمر، إلا أن اختفاء تلك الأوراق مع القمطر الذي رآها فيه حرماً شيئاً كثيراً<sup>19</sup>، وينص أبو الطيب اللغوي على "أن أبا الأسود وضع النحو ليتعلم بنو زياد"<sup>20</sup>، أما القفطي فيروي "أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويؤكد بأنه رأى بمصر جزءاً من أبواب النحو يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود"<sup>21</sup>، ويسرد علينا ابن الأنباري رواية مختلفة تماماً عما سبق فهو يشير إلى "أن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده ووضع حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه"<sup>22</sup>، ودعم السيوطي (911 هـ) هذه الرواية فقال: "وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه"<sup>23</sup>، وعلى هذا أمامنا مجموعة من الآراء المختلفة، التي تعكس اضطراب هذه النشأة وغموضها هي كالاتي:

- 1- الرأي الأول: يسند نشأة النحو إلى علي بن أبي طالب.
- 2- الرأي الثاني: يسند نشأة النحو إلى أبي الأسود.
- 3- الرأي الثالث: يسند نشأة النحو إلى أبي الأسود تارة، وإلى نصر بن عاصم تارة أخرى، وإلى عبد الرحمن بن هرمز مرة أخرى، ويحيى بن يعمر<sup>24</sup>.

وتكاد الروايات تتفق على أن أبا الأسود هو الذي وضع النحو بعد أن أخذه عن علي بن أبي طالب، يقول ابن النديم: "زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الاسود الدؤلي، وأن أبا الأسود أخذه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب"<sup>25</sup>. كما رجح الأفغاني سعيد أن يكون أبو الأسود أول واضع لعلم النحو، ولا يستبعد ذلك منه "فالرجل ذو ذكاء نادر وجواب حاضر وبديهة نيرة، ثم هو بعد بليغ أريب مرن الدهن، وحسبك اختراعه للشكل الذي عرف بنقط أبي الأسود للدلالة على الرفع والنصب والجر والتتوين، وهو ما أجمعوا عليه قديما وحديثا، ولم يشك فيه حديثا أحد"<sup>26</sup>، ولم يحدد الباحث الأساس الذي بنى عليه من جاء بعد أبي الأسود ولم يجد ما يشفي الغليل، أما أبواب النحو التي تذكرها الروايات فهي باب الفاعل والمفعول والمضاف، وحروف الجر وحروف النصب: إن و أن ولعل وكأن ولم يذكر أبو الأسود لكن، فقال له علي: لم تركتها فقال: لم أحسبها منها، فقال: هي منها، فزدها فيها "ويذهب ابن الأنباري (577هـ) إلى أنه وضع بابي العطف والنعت ثم باب التعجب والاستفهام، بالإضافة إلى باب حروف النصب، كما تشير الرواية إلى أن أبا الأسود كلما وضع بابا من الأبواب عرضه على علي حتى اكتفى من ذلك وقال: "ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت فلذلك سمي النحو"<sup>27</sup>. ما يفهم من رواية ابن الأنباري أن عليا وأبا الأسود قد وضعوا النحو بمصطلحاته وأقسامه.

ومن الدارسين المحدثين من رد هذه الروايات وكذبها، واعتبر زمن علي وأبي الأسود رافضا للتقسيمات النحوية التي وردت فيها، يصرح بذلك أحمد أمين فيقول: "وكل هذا حديث خرافة، فطبيعة زمن علي وأبي الأسود تأبى هذه التعريفات، وهذه التقاسيم الفلسفية، والعلم الذي ورد إلينا من هذا العصر في كل فرع، علم يتناسب مع الفطرة ليس فيه تعريف ولا تقسيم، إنما هو تفسير آية أو جمع الأحاديث ليس فيها ترتيب ولا تيويب"<sup>28</sup>.

وإذا كانت الروايات تضطرب حيناً وتتعارض أحياناً في نشأة النحو الذي يكتنفه الغموض من كل نواحيه، وتتجاذبه الفروض المتقابلة، فإن الاتفاق على أن أبا الأسود هو الذي وضع النقط "هو ما أجمعوا عليه قديماً ولم يشك فيه أحد حديثاً"<sup>29</sup>، وإذا كنا ألفينا أحمد أمين يرفض التقسيمات النحوية المنسوبة لأبي الأسود، فإنه يعتبر نقطة للمصحف عملاً صادراً عنه، وربما يكون خطوة أولية في سبيل النحو<sup>30</sup>، وقد نفى شوقي ضيف أن يكون أبو الأسود وضع النحو، بل وضع رسم إعراب القرآن عن طريق النقط ونراه يصرح بهذا في قوله: "وكان هذا الصنيع الخطير الذي سمي باسم رسم العربية سبباً في أن يختلط الأمر فيما بعد على الرواة، فتظن طائفة منهم أن أبا الأسود رسم النحو وشيئاً من أبوابه، وهو إنما رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه".<sup>31</sup>

فبعد هذا الحديث عن الروايات المتحدثة عن أولية وضع النحو، فإن هذه النشأة مازال يكتنفها بعض الغموض، وتختلف فيها الروايات إذ هي "عملية خلق يشترك فيها عادة أكثر من عامل ويسهم فيها أكثر من شخص"<sup>32</sup>، ولذا رأيناه ينسب في كل مرة إلى واحد من العلماء الذين سبق ذكرهم.

كما لا يمكننا أن نجزم في هذه النشأة وما لابسها، يقول بروكلمان: "إن أوائل علم اللغة العربية سنبقى دائماً محوطة بالغموض والظلام، لأنه لا يكاد ينتظر أن يكشف النقاب عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفتها"<sup>33</sup>، والحقيقة ذاتها يعرضها أحمد أمين فالنحو العربي عنده غامض، ويفتقر إلى ما يصح أن يفصح عن ارتقائه ونموه، فيقول عن ذلك: "تاريخ النحو في منشئه غامض كل الغموض فإننا نرى فجأة كتاباً ضخماً ناضجاً هو (كتاب سبويه) ولا نرى قبله ما يصح أن يكون نواة تبين ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء، وكل ما ذكرناه من هذا القبيل لا يشفي غليلاً".<sup>34</sup>

والنحو بمعناه الفني "كان له أن يتأخر قليلاً إلى جيل آخر على رأسهم عيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمر بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق، وهؤلاء رويت عنهم

جميعاً أنظار في النحو تجعلهم أئمة من هذا الفن"<sup>35</sup>، فعيسى بن عمر الثقفي ربما هو أول من كتب في العربية والنحو كتابين: الجامع والإكمال، ولكنهما لم يصلا إلينا، إلا أن تلميذه الخليل بن أحمد اطلع عليهما وأعجب بهما، وجعل من صاحبهما مبتكراً في هذا الفن، وينسب ابن النديم في الفهرست في - هذا السياق - بيتين للخليل بن أحمد يذكر فيهما هذين الكتابين وفضلهما على الناس :

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعاً كُلُّهُ      غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عَيْسَى بْنُ عُمَرَ  
ذَلِكَ إِكْمَالٌ وَهَذَا جَامِعٌ      فَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرٌ<sup>36</sup>

ففي البيتين - إن كانت نسبتهما صحيحة - إقرار ضمني بأن هناك مرحلة غير معروفة من تاريخ النحو، وليس من الطبيعي أن يولد النحو مكتلاً في الكتاب، إذ لا بد من وجود إرغاصات تسبق النضج والاكتمال، وهو ما يبدو مفقوداً في تاريخ النحو العربي ولئن "تكن نسبة البيتين إلى الخليل صحيحة يكن اختفاء هذين الكتابين من أعجب الأمور في تاريخ النحو"<sup>37</sup>، ولعل الحقيقة تلك التي نجدها عن كل من الدكتور عبد العالي سالم مكرم في كتابه " (الحلقة المفقودة من تاريخ النحو العربي) ومحمد خير الحلواني في كتابه (المفصل في تاريخ النحو العربي) في جزئه الأول الذي يتناول مرحلة ما قبل سيبويه، فقد أشار الباحث الأول في مقدمة كتابه إلى وجود حلقة مفقودة في السلسلة النحوية، وهي الحلقة التي تصل من عصر أبي الأسود إلى عصر الخليل وسيبويه، يقول عن ذلك: "وقد شعرت منذ أن اشتغلت بالنحو العربي بأن هناك مرحلة مفقودة في تاريخ النحو العربي تمتد من عصر أبي الأسود إلى عصر الخليل وسيبويه"<sup>38</sup>.

كما يذهب الباحث إلى ارتباط نشأة علم النحو بما كان للعرب من معارف في الجاهلية والإسلام، وأن الذي تنسب إليه نشأة أضخم علم يشغل الناس يعد حلقة في سلسلة المعرفة اللغوية إذ "قضية نشأة النحو مرتبطة بالمعارف السابقة للعرب في الجاهلية والعصر الإسلامي وبخاصة في مجالي القراءة والكتابة"<sup>39</sup>. وأبو الأسود "حلقة في سلسلة المعرفة اللغوية... ولكنه برز في مجالها وزاد نشاطه في حقلها

فنسبت إليه نشأة أضخم علم شغل الناس قرونا عديدة ومازال يشغلهم في وقتنا الحاضر<sup>40</sup>.

أما الباحث الثاني محمد خير الحلواني فيشير في مقدمة كتابه إلى اعتناؤه بمرحلة غامضة من تاريخ علم النحو، يقول في ذلك: "وقد عنيت في هذا الجزء بالكشف عن نمو النحو في المرحلة الغامضة مرحلة أبي الأسود وتلامذته، وهي مرحلة وقف حيالها الباحثون في الشرق والغرب شاكين حائرين، ونعتوها بأنها مرحلة مظلمة في تاريخ النحو العربي، لا يمكن أن يبلغها البحث العلمي"<sup>41</sup> ويذهب إلى أن نشأته تعود إلى الجذور الإسلامية التي كان القرآن ركيزتها المحورية، "والحق أن نشأة النحو ترتبط بجذور الحياة الإسلامية في ذلك الزمن وترتد إلى ما ترتد إليه نشأة العلوم الأخرى من لغوية ودينية وفلسفية، وكان القرآن الكريم محور هذه الجذور وهو الركيزة الأساسية فيها وإذا فإن نشأة العربية بمعناها الاصطلاحي انطلقت من القرآن"<sup>42</sup>، مشيراً إلى أن أبا الأسود كان يعلم النحو ووضع أسسه نافياً عنه التأليف فيه.<sup>43</sup>

مما سبق يتضح أن الآراء بشأن أول من وضع النحو منقسمة بين الاضطراب والاختلاف قديماً وحديثاً، وهو ما جعل إحدى مراحل النحو غير معروفة أو غير واضحة المعالم على الأقل، وهو ما يمكننا الاعتماد عليه في القول: إن بدايات علم النحو الحقيقية لم تصل إليها أيدي الباحثين بصورة وافية، ومن ثم فالسلسلة النحوية بهذه النشأة غير مكتملة، على أن غموض النشأة يمكن أن ننظر إليه من زاوية أخرى وهي زاوية الأصالة والتأثر في الدرس النحوي، "إذ يميل بعض الدارسين المحدثين إلى أن نشأة البحث اللغوي عند العرب كانت خاضعة لتأثير أجنبي ويرجعون التأثير اليوناني الذي أخذ طريقه إلى النحو العربي عن طريق النحو السرياني، وبعضهم يقول بوجود تأثير هندي في عروض الخليل وسيبويه... بيد أن المؤرخين القدامى وبعض المحدثين يؤكدون أن البحث اللغوي عند العرب أصيل

وأنة من نتاج العقلية العربية المحضة<sup>44</sup>، هذا وعرف عن الهنود واليونانيين نشاط لغوي ملحوظ يتناول الجوانب الصوتية والنحوية والدالية في لغاتهم<sup>45</sup>.

لقد وقف العلماء من مسألة الأصالة والتأثر في النحو العربي مواقف مختلفة، إذ وقف بعضهم موقف الحائر المتردد، ووقف آخرون موقف الحذر المتشكك، "ولم تكن هذه الخلافات عند علماء العرب فحسب، بل عند علماء أوروبا أيضا وبخاصة الذين درسوا تراثنا العربي وتاريخه"<sup>46</sup>، ويصور لنا أحمد أمين جانبا من هذا الخلاف على لسان المستشرق ليمان فيقول: "اختلف العلماء الأوروبيون في أصل هذا العلم، فمنهم من قال: إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب، وقال آخرون ليس كذلك، وإنما نبت كما تنبت الشجرة في أرضها، كذلك نبت علم النحو عند العرب".<sup>47</sup>

ولعل ما جعل هذا الاضطراب بهذا الشكل -فيما يبدو- تأخر العرب زمنيا عن كثير من الأمم في درس لغتهم، "وكل ما ينسب إليهم في هذا المجال نشأ بعد ظهور الإسلام"<sup>48</sup>، إذ أوليات اللحن جعلت العلماء يقبلون على وضع نظام قواعد يؤدي إلى قراءة القرآن قراءة صحيحة، ويتوصل به إلى الأحكام الشرعية الصحيحة، لأن "الغرض من وضع القواعد لعلم النحو يتمثل إما في المحافظة على النصوص الدينية مثل القرآن الكريم في العالم الإسلامي، والتوراة بالنسبة لليهود، والفيدا في الهند".<sup>49</sup> والسؤال المطروح الذي يتردد بين العلماء، والذي يثير جدلا بين المهتمين بالشؤون النحوية هو: من أين أخذ العرب نحوهم؟ من السريانية أم اليونانية؟ أم هو عربي محض؟ وهل أتاحت الظروف الثقافية التي عاش فيها كل من الخليل وسيبويه فرصة الاتصال بالحضارات السابقة، مثل الحضارة اليونانية والحضارات المعاصرة مثل الفارسية والرومانية؟<sup>50</sup>

لقد انقسمت الآراء بشأن هذه النشأة إلى ثلاثة نذكرها كالاتي:

1 - الرأي القائل بالتأثر بالثقافة السريانية: ذهب إلى القول بتأثر العربية بالثقافة السريانية كثير من الباحثين العرب، إذ تتمثل خلاصة موقفهم في أن العربية

قامت على نمط السريانية، ومن القائلين بهذا جرجي زيدان، الذي ذهب إلى أن العرب "لما اضطروا إلى تدوين العلوم، وكانوا قد خالطوا السريان واطلعوا على آدابهم ومؤلفاتهم التي كان النحو في جملتها، نسجوا على منوالهم"<sup>51</sup>، ويستدل على هذا بكون العربية والسريانية شقيقتين، إضافة إلى أن أقسام الكلام العربية هي ذاتها في السريانية يقرر ذلك قائلا: "فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم ساروا على منوالهم لأن اللغتين شقيقتان، ويؤيد ذلك أن العرب بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان، وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية"<sup>52</sup>، وأيد هذا الطرح ووافقه أحمد أمين، لما أرجع إمكانية اتصال العرب بالسريان وتأثرهم بثقافتهم وبقواعدهم إلى الأصل الواحد للعربية والسريانية، فقد "كانت آداب السريانية في العراق قبل الإسلام، وكان لها قواعد نحوية، فكان من السهل أن توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية خصوصا واللغتان من أصل سام واحد".<sup>53</sup>

كما سار أحمد حسن الزيات على نهج جرجي زيدان وأحمد أمين، وذهب إلى أن عمل أبي الأسود ليس من نفسه، وإنما يرجع إلى أنه كان قد "ألم بالسريانية، وقد وضع نحوها قبل وضع نحو العربية".<sup>54</sup>

2- الرأي القائل بالتأثر باليونانية: صلة العرب باليونان تبدو جلية في التاريخ حيث "لم يقبع العرب في شبه جزيرتهم، بل جابوا البحار والمحيطات التي تحيط بهم طلبا للتجارة وبحثا عن العلم"<sup>55</sup>، وحاول اليونانيون إقامة بعض الموانئ على الساحل الغربي للبحر الأحمر لتوفر لهم الماء والغذاء ولتمولهم بالبضائع التي يحتاجون إليها وسموها بأسماء يونانية<sup>56</sup>.

كما أن اهتمام المسلمين بالعلوم العربية والعلوم الدخيلة يعزز اتصالهم باليونان "وتم هذا بالاتصال المباشر باليونان ومعرفة آرائهم النحوية، وحملت لغة العرب بعض الألفاظ اليونانية، ومازلنا نتداولها حتى الآن دون أن ندري أصلها"<sup>57</sup>، كما تعد الترجمة إحدى وسائل هذا الاتصال، ولاشك في أن الذين كانوا يقومون

بالترجمة كانوا متفقهين في نحو اللغة التي يحاولون النقل منها ومتفقهين في نحو اللغة التي يحاولون النقل إليها، "ومرحلة الترجمة مرحلة أولى في الاستفادة من علوم البشرية"<sup>58</sup>، كما يرى أصحاب هذا الرأي أن النحو العربي اقتبس أصوله من النحو اليوناني، وتوسعوا في بحثهم وتوصلوا إلى أن اللغة اليونانية "حية مرنة تشبه في بعض النواحي العربية، كالحركات وتصريف الأفعال وتعدد الصيغ وتقسيم الكلام"<sup>59</sup>، ويشير الدكتور محمود السعران إلى تأثير النحو العربي بمنطق أرسطو فيقول: "إن النحو العربي في مراحله الأولى تأثر شيئا من التأثير بمنطق أرسطو كما أشار علي أبو المكارم إلى أن بعض المترجمين الذين أعجبوا بالثقافة اليونانية قالوا بهذا التأثير اليوناني في الثقافة العربية"<sup>60</sup>، كما يرى أن المنهج المنطقي اليوناني ترك ظلالة من التأثير في ميادين الدراسة التركيبية والنحوية<sup>61</sup>، والإدعاء بأن لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه دعوى عريضة ينقضها التشابه بين المصطلحات العربية واليونانية، مثل اسم وفعل وحرف ومعرفة ونكرة وإسناد ومفرد وجمع ومذكر ومؤنث<sup>62</sup>، وما أقسام الكلمة في العربية إلا إشارة على تأثر الفكر النحوي ببعض الأفكار اليونانية<sup>63</sup>، على أن هناك من يرجع التأثير اليوناني في النحو العربي إلى مرحلة متأخرة، ويشير إلى وجود أثر يوناني مباشر أو غير مباشر في مرحلة متأخرة لا تشمل مرحلة النشأة<sup>64</sup>، وإذا كان كارل بروكلمان قد أشار إلى أن النحو العربي غامض النشأة وليست هناك معطيات علمية دقيقة تزيل ظلامية نشأته، فإنه يشير بهذا إلى عدم أصالة هذا العلم، مرجعا بداية التأثير إلى إمام النحاة، حيث يقول: "أن التأثير الأجنبي في علم اللغة العربية بدأ على يد سيبويه الفارسي"<sup>65</sup>.

ومما قد يتشبه به الباحث في القول بالتأثير الأجنبي في الفكر النحوي العربي هو معرفة العرب للغات من أحاط بهم من الشعوب، فقد ذكر يوهان فك أن العرب لم يقصروا معرفتهم على اللغة العربية فحسب، ولكنهم كانوا يعرفون غيرها من اللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية، فنجد اللغة اليونانية "في غربي الدولة

والفارسية في شرقها ظلنا قرنا كاملا لسان الحكم والإدارة<sup>66</sup>، كما أن الحضارات تأخذ من بعضها بعضا قديمها وحديثها "وليس معنى أن الحضارة العربية أقدم أنها لم تأخذ شيئا من الحضارات السابقة عليها، ولم تؤثر في الحضارات اللاحقة بها ولكن الحضارة نهر عظيم تمده روافد متعددة، ينبع كل منها من مكان مختلف"<sup>67</sup>.

#### الرأي القائل بأصالة النحو العربي:

ذهب جمهور من العلماء إلى أن وضع علم النحو عربي محض، حيث نشأ بالعراق في صدر الإسلام نشأة عربية على مقتضى الفطرة، للأسباب التي دعت إلى وضعه، وبذلك فهو "عربي النشأة، أصيل الطابع، ظهر بدافع عربي أصيل بعيد كل البعد عن التيارات العلمية التي وجدت في عصر النشأة، ولم يتأثر باليونانية ولا بالسريانية ولا غيرها من اللغات المجاورة"<sup>68</sup>، فقد أشار العقاد إلى أن أقدم الثقافات الثلاث العربية واليونانية والعبرية في التاريخ هي الثقافة العربية، ويرى أن هذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج إلى عناء طويل في إثباته<sup>69</sup> فالثقافة العربية في نظره أسبق من اليونانية، فكيف يتأثر السابق باللاحق، والتشابه في الاصطلاحات لا ينهض دليلا لإثبات مثل هذه الدعوى العريضة<sup>70</sup>، ولذلك وجب الإقرار بأصالة علم النحو الذي انبثق من العقلية العربية المحضة<sup>71</sup>، وقد صرح ليتمان بأن النحو العربي نحو أصيل لا دخل للثقافات المحيطة به، وأنه عربي النشأة، ولا يوجد في كتاب سيبويه "إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه"<sup>72</sup> ودعوى التأثير هذه مرجعها إلى الآراء الأوروبية المسبقة التي ترى في اليونان مصدر كل تجديد، إذ تستبعد هذه الآراء أن تظهر العلوم عند الشعوب خالصة "وليس لدعوى التأثير سند إلا التتابع الذي بموجبه يأتي التطور النحوي اليوناني والسرياني والعربي"<sup>73</sup>.

وإذا كنا قد وجدنا اضطرابا في نشأة النحو على مستويين، مستوى من وضعه أولا واضطراب الروايات حول ذلك، ومستوى كون هذا العلم خالصا أو متأثرا بالدرس اللغوي عند الأمم المجاورة للعرب، أو نقاء نشأته فإننا لا نجد هذا

الاختلاف على مستوى الأهداف التي قام من أجلها هذا العلم، والتي يبدو أن فيها شيئاً من التدرج بداية بحفظ النص القرآني من الخطأ والتحريف بقراءته قراءة سليمة، مروراً بالتعرف إلى أسرارهِ وحسن استنباط أحكامهِ، وانتهاء برسم معالم الأداء اللغوي السليم لاتباع سنن العرب في كلامها، ولم نكد نقف على أي خلاف بين العلماء والدارسين بعكس ما وجدناه عندهم في نشأة هذا العلم، فهذا ابن جني (392هـ) يصرح بأن هدف النحو إنما هو مجازاة العرب في كلامها، ورد كل مخالف لذلك، فهو وضع "يلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"<sup>74</sup>، وهاهو الجاحظ يشير إلى أن الغاية من النحو تحقيق فهم حسن وتعبير دقيق وتبليغ جيد، والهدف كما رسمه "ألا يتجاوز ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده وشيء إن وصفه"<sup>75</sup>، وقد جمع أبو القاسم الزجاجي هذه الغايات جميعاً، ولخصها في "الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صواباً غير مبدل ولا مغير، وتقويم كتاب الله الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي(ص) وإقامة معانيها على الحقيقة"<sup>76</sup>، كما نجد الأفغاني سعيد يربط الهدف بحسن الفهم الديني وبحسن الاستنباط "إذ كانت سلامة أحكامه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وكان في ضعف العربية تضيق لهذا الفهم"<sup>77</sup>.

وزاد الدكتور محمد عبد العزيز على الأفغاني أن عدد الأهداف ولم يحصرها في الغاية الدينية "فهم النص القرآني الكريم والتعرف على أسرارهِ كان هدفاً يبتغيه كل مسلم، وعلم النحو هو أقرب العلوم اللغوية إلى هذه الغاية الكريمة... كما أن حاجة المسلمين من غير العرب إلى تعلم العربية والتعبد بكتابها الخالص وحرص أولي الأمر على تعليمهم إياها، دعاهم إلى وضع القواعد التي تمثل العربية الصحيحة وجعل نطقها صحيحاً"<sup>78</sup>.

وخلاصة القول فالنحو عند العرب مكسو بغموض يلف نشأته على مستويين: مستوى الواضع الأول له، ومستوى تأثيره بالدرس النحوي للأمم التي أحاطت بهم وما اختلاف الآراء حول هذه النشأة إلا دليل على ذلك، وعلى الرغم من تعدد المصادر حول هذه النشأة قديماً وحديثاً، فإن الحسم في هذه المسألة لم يحصل، مما يؤثر على وجود حلقة مفقودة من تاريخ النحو، وإذا كان هذا حال النشأة فإن الأهداف على العكس من ذلك، إذ تميزت بالوضوح والجلال، ولم نكد نقف - على اختلاف المصادر - على اختلاف في الغاية، حتى ولو كانت المصادر غير عربية.

#### الهوامش:

- 1 - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. للشيخ محمد الطنطاوي، دار المعارف الطبعة الثانية، 1991 ص 20.
- 2 - عيون الأخبار، ابن قتيبة، دار الكتاب العربي بيروت، ج 5، ص 185 .
- 3 - تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف مقدمة الكتاب، دار المعارف، ج3، ص 05.
- 4 - النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، ج1، ص03.
- 5 - الزخرف. الآية 03.
- 6 - البحث النحوي عند الأصوليين، السيد مصطفى جمال مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام بالتعاون مع دار الهادي للنشر والتوزيع، بيروت ط1 ص39.
- 7 - ينظر نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، الطنطاوي، دار المعارف، ط2 القاهرة، 1991 ص15.
- 8 - المرجع السابق، ص16.
- 9 - مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون. مادة لحن.
- 10 - القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، عبد العالي سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، ط2 1978، ص45.
- 11 - فقه اللغة في الكتب العربية. عبده الراجحي، بدون طبعة ص34-35
- 12 - مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تقديم وتعليق: الدكتور محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، د.ط، سنة 2003، ص14

- 13 - طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، د.ت، ص11.
- 14 - من تاريخ النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر، د.ت، ص 08 .
- 15 - كتاب سيبويه مادته ونهجه، محمد حسن عبد العزيز، دار السلام، الطبعة الأولى 2012 ص31.
- 16 - الطبقات، الزبيدي ص 11-12.
- 17 - أخبار النحويين البصريين، السيرافي، تح: عبد المنعم خفاجي، مطبعة بابي الحلبي، مصر ط1، مصر1955، ص10.
- 18 - طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، د.ت ود.ط، ج1 ص14.
- 19 - الفهرست، ابن النديم، مكتبة خياط، بدون تاريخ. ص 40-41.
- 20 - مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، ص 8-10.
- 21 - إنباه الرواة، القفطي، تح: محمد أبو الفضل، بيروت، 1986، ج 1/ 4-5.
- 22 - نزهة الألبا، ابن الأنباري، تح: محمد أبو الفضل، القاهرة 1976، ص 4.
- 23 - المزهر - السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، القاهرة، د.ت، ج1 ص397.
- 24 - المصطلح النحوي نشأته وتطوره، عوض حمد القوزي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983، ص 27.
- 25 - ينظر الفهرست، ابن النديم ص 45، 46 ونزهة الألبا لابن الأنباري، ص 17 - 23.
- 26 - من تاريخ النحو، الأفغاني، ص 27-28.
- 27 - نزهة الألبا لابن الأنباري، ص 4.5، والفهرست لابن النديم، ص 62 - 63.
- 28 - ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار المعارف بمصر ط5، 1983، ج 2، ص285.
- 29 - من تاريخ النحو، الأفغاني، ص 28.
- 30 - ضحى الإسلام، أحمد أمين ج2، ص 286 .
- 31 - المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط 5، سنة 1983، ص16.
- 32 - تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، المختار ولد أباه، دار الكتب العلمية، ط2 سنة 2008، ص 43.
- 33 - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر ط1 سنة 1961، ج2، ص128.

- 34 - ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج2، ص 285.
- 35 - كتاب سيبويه مادته ومنهجه، محمد حسن عبد العزيز، ص 34.
- 36 - ينظر الفهرست، ابن النديم، ص 62.
- 37 - من تاريخ النحو، سعيد الأفغاني، ص 38.
- 38 - الحلقة المفقودة في النحو العربي - عبد العالي سالم مكرم، مصر، طبعة 1977، ص 03.
- 39- نفسه، ص 11.
- 40 - نفسه، ص 16.
- 41 - المفصل في تاريخ النحو، محمد خير الحلواني، بيروت 1979، ج1، ص6.
- 42 - نفسه، ص17.
- 43 - ينظر نفسه، ص 150.
- 44 - كتاب سيبويه، مادته ومنهجه، محمد حسن عبدالعزیز، ص 31.
- 45 - نفسه، ص 31.
- 46 - أبو الأسود ونشأة النحو، فتحي عبد الفتاح الدجني، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1-2002، ص 58 .
- 47 - ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج 2، ص 292،
- 48 - كتاب سيبويه، مادته ومنهجه، محمد حسن عبد العزيز، ص 31.
- 49 - النحو بين العرب واليونان، إبراهيم خليفة شعلان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 2009، ص 51.
- 50 - نفسه، ص 52.
- 51 - المدارس النحوية، خديجة الحديثي، دار الأمل، الأردن، ط3 سنة 2001، ص33.
- 52 - تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مراجعة شوقي ضيف، القاهرة ج1، ص 388 .
- 53 - فجر الإسلام أحمد أمين، ص183.
- 54 - تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار المعرفة بيروت 2000، ص149.
- 55 - النحو بين العرب واليونان، إبراهيم خليفة شعلان، ص11.
- 56 - تاريخ مصر في عهد البطالمة، نصحي إبراهيم، القاهرة، د.ت، ج2، ص404.
- 57 - النحو بين العرب واليونان، إبراهيم خليفة شعلان، ص 13.
- 58 - ينظر نفسه، ص 15.
- 59 - ينظر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج1، ص 388.

- 60 - علم اللغة العام، محمود السعران، دار المعارف القاهرة، 1962، ص 355.
- 61 - ينظر تقويم الفكر النحوي، ص 355 علي أبو المكارم، بيروت، د.ت، ص 54-55.
- 62 - النحو بين العرب واليونان، إبراهيم خليفة شعلان، ص 59.
- 63 - ينظر تقويم الفكر النحوي، علي أبو المكارم، ص 78 - 79 - 92 - 93 .
- 64 - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، القاهرة، 1967، ص 237.
- 65 - تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ج2، ص123.
- 66 - العربية، يوهان فك. ترجمة رمضان عبد التواب القاهرة، 1980، ص 24.
- 67 - ينظر: النحو بين العرب واليونان، إبراهيم خليفة شعلان، ص 53.
- 68 - أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو، فتحي عبد الفتاح الدجني، ص 67.
- 69 - الثقافة العربية أسبق من ثقافة العرب واليونان، العقاد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1985، ص05.
- 70 - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص239.
- 71 - تاريخ الأدب العربي، بروكلمان ج2، ص124.
- 72 - تاريخ النحو وأصوله، عبد الحميد السيد، مكتبة الشباب، القاهرة، 1976، ص24.
- 73 - النحو بين العرب واليونان، إبراهيم خليفة شعلان، ص58 .
- 74 - الخصائص، ابن جني، تحقيق علي النجار، دار الكتب المصرية، ج1، ص 24.
- 75 - الحيوان، الجاحظ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3 1969، تح عبد السلام هارون، ج1 ص91.
- 76 - الإيضاح في علل النحو، الزجاجي تحقيق: مازن مبارك، دار النفائس، ط4، 1982 بيروت، ص95-96.
- 77 - من تاريخ النحو، الأفغاني، ص 19.
- 78 - كتاب سيبويه مادته ومنهجه، محمد حسن عبد العزيز، ص 32.